تمثلات الحجـــــاب بين الدين والايديولوجيا

The Hijab Representations Between Religion and Ideology

جنيدي عبد الرحمان : أستاذ محاضر "ب"
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية و الإنسانية
المركز الجامعي أحـــمد زبانة ولاية غلـــــيزان

تاريخ إرسال المقال: 20/11/2018 **تاريخ قبول المقال:** 27/02/2019

الملخص

الحجاب ثقافة متجذرة في كل الأديان السماوية. وليست في الإسلام فحسب. إلا أن الحجاب عند المسلمين أخذ بعدا لهوية المرأة ومن خلاله هوية الأمة ككل. ويظهر الحجاب (بتنوعاته ودلالاته وخطابه) ليس خاليا من البعد السياسي بل كان وما زال في قلب المشهد الاجتماعي والثقافي والسياسي العام. ولكن المواقف السياسية البحتة - إن جاز التعبير - تتوزع إزاءه على محورين: فرض الحجاب مقابل الدفاع عن التحرر منه، وحظر الحجاب في مقابل الدفاع عن حق ارتدائه. يتركز حديثنا في هذا المقال على ثقافة الحجاب في الأديان السماوية (ثقافة العري كاتجاه عقائدي، الحجاب في الديانة اليهودية، الحجاب في الديانة المسيحية، الحجاب في الديانة الإسلامية). **كما** نتطرق إلى بعض أنواع وتمثلات الحجاب (الدلالات والمعاني). وفي الاخير نتحدث عن فعل التحجب (بين النسق والدلالات الرمزية).

الكلمات المفتاحية: ثقافة العري، الحجاب في الأديان السماوية، نسق التحجب، الدلالات الرمزية، تمثلات .

المؤلف المرسل: جنيدي عبد الرحمان .DJENAIDI7777@gmail.com

Abstract : The veil is rooted in the culture of all religions. And not only in Islam. However, the veil when Muslims take dimension to the woman's identity and through which the identity of the nation as a whole. It shows hijab (by its diversification , connotations and its speech) is not free from political dimension, but was still at the heart of social, cultural and public political scene. But purely political positions - so to speak - are divided about it on two axes: the imposition of the veil against the defense of the freedom of it, the headscarf ban in exchange for defending the right of wearing it. Our conversation is focused in this article on the culture of the veil in the heavenly religions (such as the direction the culture of nudity and ideological, the veil in Judaism, Christianity veil, the veil in Islamic religion). Also we are touching on some types of representations and the hijab (connotations and meanings). In the last act of talking about the wearing of headscarves (between the lines and connotations Avatar).
Keywords: culture of nudity, hijab in heavenly religions, pattern of obscurantism, symbolism, representations.

1– مقدمة

الحجاب أصبح لصيقاً بالدين الإسلامي، وإن لم يكن في يوم من الأيام ممارسةً دينيةً اجتماعية افتتحها ودشّنها الإسلام. بل هو ممارسةٌ تاريخيةٌ مغرقةٌ في القِدم عرفتها أديان وثقافات أخرى سابقة على الإسلام. فتغطية المرأة شعر رأسها عادةٌ اجتماعية لم تعرفها القبائل العربية في الجزيرة إلا مع مجيء الإسلام وإنما عرفتها بلاد ما بين الرافدين والإغريق وفارس، حيث كانت المرأة الحرّة تُجبَر على تغطية رأسها تمييزاً لها عن الجارية. وباعتبار أنّ اللباسَ أحدَ العناصر الأساسية في كل الثقافات فإننا نحاول أن ننطلق من ثقافة العري كمنطلق أساسي لفهم نَسَقِ فعل التحجب.

2ـ الحجاب في الأديان السماوية

2- 1 ثقافة العري كاتجاهٍ عقائدي: إن تاريخَ الجسد وثقافتَه تراثٌ ظلَّ في كثير من الأحيان ولدى بعض الشعوب يُطوى بمستور المنظومات الاجتماعية والدينية. فتصطدم سلطة هذه الثقافة بقداسة الجسد، فإذا تجاوز الجسد طقوس الثقافة تحرَّر، وانتقلت ثقافة العري من التنظيمية والتابو إلى الحسية ثم إلى التطبيع اليومي، بتحويله إلى جزء من الحياة اليومية كما هو الحال في بعض المجتمعات الغربية الحديثة. للإشارة هنا أن المرأة نزاعة إلي العري أكثر من الرجل بدليل أن النساء حتى في فصل الشتاء يلبسن الجيب ويكشفن عن الذراع والشعر.

تتخذ بعض الشعوب ثقافة "العُري" – كما لدى " الهندوسية مثلاً لغاية سامية، إذ العُري لديهم لا يمثل سوى مرحلة متقدمة من السلوك الارتقائي.. ووفقاً لمعتقداتهم فإنَّ الإنسان إذا ما وصل لمرحلةٍ يستطيع فيها التخلصَ مما يستره، كان ذلك دليلاً على تخلصه من رغبات الدنيا وشهواتها ومطامعها ، فإذا ما شعر بالحياء ورفض التعري كان ذلك دليلا على أنه مازال متعلقاً بالدنيا. ويجب أن يكافحَ إلى أن يصل إلى مرحلة التعري الكامل للهروب من الحياة.

أما اليومَ وفي ظل تزيين العُري وتقبيح الاحتشام والوقار فقد صارت ثقافة العري مذهباً عند بعض الحركات التي تدعو للعودة إلى الطبيعة والتحرر من كلِّ أشكال اللباس حيث أضحَتْ ثقافةُ الجسد من ضرورات العولمة، وفلسفة ما بعد الحداثة التي ترى في جسد الأنثى مرجِعاً بذاته.

2- 2 الحجاب في الديانة اليهودية: " يُرجع الباحثون أول إشارة للتحجب إلى نصٍّ قانوني آشوري يعود إلى القرن الثالث عشر ق.م كانت الحضارة الآشورية إحدى أولى الحضارات في منطقة ما بين الرافدين التي تحتلها اليوم العراق وايران وسوريا والجزء الجنوبي الشرقي من تركيا والتي يتتبّعُ أهلُها أصولَهم إلى السوماريين والأكاديين. في ذلك المجتمع الآشوري كان التحجب وفصل النساء عن الذكور من الممارسات الراسخة التي تمَّ تجسيدها في منظومة قوانينهم."[1]

لم يكن الحجاب المتداوَل اليوم في المنطقة العربية معروفا في المجتمع اليهودي. وكانت النساء الطاهرات يكتفين بوضع شال على الرأس، ..."[2] فقد تشدّدت الديانة اليهودية في الحجاب تشددا بالغا وكذلك المجوسية. وكانت المرأة في بلاد فارس تُحْجَبُ عن محارمها كالأب والعم والخال والأخ..وقد عرفَتْهُ نساء اليونان والرومان وعرفته شعوب عديدة". "[3] تُغَطِّي بعضُ اليهوديات في إسرائيل رؤوسَهن وأجسادَهن بِأَرْدِيَةٍ وأَوْشِحَةٍ يُطْلَقُ عليها البَراقِع وفي واقع الأمر، فمن المستحيل التمييز بين صور اليهوديات اللّاتي يرتدين تلك الأردية وبين نظيراتهن المسلمات اللاتي يتحجّبن بأردية سوداء مماثلة."[4]

من يقرأ الكتبَ الدينية اليهودية وخاصة كتب العهد القديم - بغير عَناء في البحث يجد أن التوراة تضمَّنت كثيرا من الأخلاقيات و الأحكام الرفيعة ومن هذه الأحكام أحكام الزينة والحجاب. يجد أن حجاب المرأة كان معروفا بين العبرانيين من عهد إبراهيم عليه السلام، وظلَّ معروفا بينهم في أيام أنبيائهم جميعا الي ظهور

المسيحية، وتكررت الإشارة إلي البُرْقُع في غير كتاب من كتب العهد القديم وكتب العهد الجديد..."[5].

ففي الإصحاح الرابع والعشرين من التكوين عن – رفقة – أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق: فنزلت عن الجمل وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشي في الحقل، فقال العبد سيدي، فأخذت البُرقُعَ وتغطّت".[6] وفي الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين، أيضا أن تامار: "مضت وقعدت في بيتها ولما طال الزمان خلعت عنها ثياب ترمُّلِها وتغطّت ببُرقع وتلفّفت."[7] وجملة هذه الشواهد تؤكد على وجوب التحجب في الديانة اليهودية. فالبُرقع والقناع والخمار كان حقيقةً ثابتةً في سَتر وجه وشعر المرأة اليهودية.

2- 3 الحجاب في الديانة المسيحية: حبذت التعاليم المسيحية، التزام المؤمنات بالحشمة في اللباس وطلبت منهن نبذ المظاهر والتحلي بالإيمان والوَرَع لا بالملابسَ باهضةَ الثمن ففي رسالة **Paul** الأولى إلى**Corinthe** ، ينصح المرأة المؤمنة بتغطية شعرها خوفا على المصلين من الإغراء والغِواية ...فإنْ لم تعمل بذلك تُعاقب بقصِّ شعرِها أو حَلْقِه.... وقد أراد بولس من خلال استخدامه فكرة غطاء الرأس للمرأة، أن يحدد انتماء المرأة للرجل، كما أراد أن يفصل بين نساء الكنيسة والنساء غير الصالحات في المجتمع في أيامه"[8] فالحجاب في القديم، كما يقول غبطة البطريرك**Gnathios Quatre** : لم يكن حجابا باللباس وإنما كان حجابا اجتماعيا، فالمرأة المتزوجة كانت تعرف من عُقدةٍ على غطاء رأسها في حين كان غطاء غير المتزوجة خاليا من كل عقدة. [9]

إذن المسيحية لا تفرض لباساً معينًا على المرأة، وإنما تطلب من المرأةَ الاحتشام أثناء تأدية الفرائض الدينية وهذا ما يؤكده أيضا غبطة حين يقول :"الحقيقة أن كثير من الناس تمادَوْا كثيرا في مُسَايَرَتِهم للموضة وخروجهم عن المألوف. وكثيرا ما تأتي العروس إلى الكنيسة بلباسٍ لا ينسجم مع جوِّ الصلاة للعرس الإكليلي. حتى أني في إحدى المرات نزعت جاكيت العريس وسترت بها كتفيْ العروس العاريتين"... ويقول أخيرا : " وأنا بعد أن عرفت من النساء أنَّ هناك ثيابا خاصة بكل مناسبة، فإني أميل إلي أن ترتدي النساء ثيابا خاصة أثناء الصلاة". [10] في كنيسة الاتحاد المسيحي الإنجيلية، المرأة مُلْزَمَةٌ بتغطية رأسها أثناء الصلاة. لأنّ كل مَجْدٍ بشريٍّ يجب أن يختفيَ أمام مجدِ اللّه. ولأن مجدَ المرأة هو شعرها، فعليها أن تغطيّه".[11] إذن ليس في المسيحية للمرأة شروط خاصّةٌ باللباس، وانَّ ما يشترط هو الحشمة والوقار ويلاحظ أن لباس الراهبات مشابهٌ للباس المسلمات. " وحتى يومنا هذا، ترتدي النساء القبعات لدى ذهابهن للكنيسة وبخاصة في المجتمعات الكاثوليكية المحافظة وبعض دوائر الطوائف البروتستانتية في مختلف أنحاء العالم، فيما تحافظ أخريات على شعورهن

طويلة حيث تُستخدم كغطاء للرأس علاوة على ذلك ترتدي الراهبات على المذهب الكاثوليكي والأرثوذكس أرديَةً خاصة بهنّ، كما أنّ تماثيلَ مريم العذراء ورسوماتها المتكررة تصورها بحجاب يغطي جسدَها ورأسَها."[12]

2- 4 الحجاب في الديانة الإسلامية: جاء الإسلام والحجاب في كل مكان مجردَ تقليدٍ وبقية من بقايا العادات الموروثة. لا يدري أهو أَثَرَةٌ فردية أم وقاية اجتماعية (مُعطى أنثربولوجي أم ضرورة اجتماعية)، بل لا يدري أهو مانع للتبرج، وحاجب للفتنة أم هو ضرب من ضروب الفتنة والغواية، فصنع الإسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه وتخلفت بقاياه بغير معنى. فأصلح منه ما يفيد ويعقل، ولم يجعله كما كان عنوانا لاتهام المرأة أو عنوانا لاستحواذ الرجل على ودائعه المخفية".[13]

فقد كانت النساء في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، كثيرات الزينة والتبرج يلبسن ثياباً تكشف عن الصدور والنحور. ويذكر الزمخشري في تفسيره المعروف بالكشاف، فيقول "كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن. فالثابت هو أنّ الحجاب كان موجوداً في العالم قبل الإسلام ولم يَبتكر الإسلام الحجابَ. إنما الدوافع كانت تختلف من جيل إلى جيل ومن أمّة إلى أمّة حسب اختلاف الأعراف والتقاليد. "[14] إن الحجابَ الموجود عندنا ليس خاصا بنا ولا أنّ المسلمين هم الذين استحدثوه و لكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا ثم تلاشى طوْعًا لمقتضيات المجتمع وجريا على سنة النمو والترقي"[15].

إن التاريخية ومنهجيات التأويل والتفكيك هي التي ستتمكن من إعادة مسألة الحجاب إلى نقطة الصفر لأن القراءة التاريخية عبارةٌ عن محاولة استحضار السياق التاريخي والثقافي والاجتماعي. لذا يؤكد أصحاب المنهج - الفونولوجي - على مسألة السياق لأن العبور من اللفظ إلى المعنى لا يتم إلا عبر قنطرة الوسيط الثقافي بَيْدَ أنّ تطبيق هذه المنهجيات يُعتبر انتهاكا للنصوص المقدسة والتي لاتزال في عِداد اللاّمُفكَّر فيه لأنه سيتسبّب بزعزعة الفكر الديني برُمّته وسيفتح آفاقا واسعة للتأويل و قابلية أكثر لتوليد المعاني من النصوص الدينية.

بالرجوع إلى لحظة التكوين الأوّلي للحكم الشرعي للحجاب في الإسلام. فمن يتخذون موقف "أنصار الحجاب"، يستدلون من النصوص الشرعية الإسلامية (القرآن والسنة) ما يفيد أنّ الحجاب هو أمر من الله لكل امرأة مسلمة، كما يرجع "منكرو الحجاب " إلى ذات اللحظة وذات النصوص ليفنّدوا قول "الأنصار وينتهوا إلى أنه لا أساس للحجاب في التشريع الإسلامي، بل هي تقاليد وعادات عرب الجزيرة أُلبست ثوب التشريع الديني. هذا الجدل صار مكّررا ومعلومةً جوانبُه.

يمكن ببساطة الوقوف على نماذج خطاب كلا الطرفين: أنصار الحجاب ، بينما لم يذع صيت الكثير من أدبيات الطرف الآخر الرافضين للحجاب، إلاّ كتبا معدودة من أشهرها: "الحجاب" لجمال البنا، وحقيقة الحجاب وحجية الحديث" للمستشار محمد سعيد العشماوي. ليس من المفيد إذن تكرار عرض جوانب هذا الجدل بالكامل، ولكن أعتقد أنه من المفيد التقاط بعض الملاحظات الدالة من بين ثنايا هذا الجدل.. الملاحظة الأولى: أنّ مصطلح "الحجاب" نفسه لم يرد ذكره في النصوص الشرعية الإسلامية فيما يتعلق بالمرأة إلا مرّة واحدة: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ": سورة الأحزاب 53. ولا يعني هذا، كما في أقوال مشاهير المفسّرين، سوى التنبيه على المسلمين آنذاك بعدم اقتحام حجرات زوجات النبي صلى الله عليه وسلم المُلحَقة بالمسجد النبوي. والملاحظة الثانية تتعلق بأن باقي النصوص لا تحوي صراحةً ضوابط هذا الزيّ، إذا استثنينا سحب حالة الحجب العام وتعميمها من قِبل التيّار السلفي الوهابي (السعودي).

فحوَى النصوص الأخرى يطلب من النساءَ بأن "يُدْنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ" و"يضربن بخمُرهن علي جيوبهن" و"لا يُبدين زينتَهُن إلّا ما ظهر منها". والتعبيرات السابقة ليست واضحة بنفسها بأي حال فيما يتعلق بتحديد ضوابطَ لزي المرأة. كما أنَّ هذه النصوص واضح أنَّ دلالتَها ليست مستقلة عن زيٍّ فِعْليٍّ قائمٍ تتحدث عنه. فالجلباب والخمار تتحدث عنهما النصوص بدون أن تعرِّفهما أو تضع لهما وصفا. وبالتالي فإن الرجوع لزيّ المرأة السائد وقتئذٍ لا بديل عنه لتحديد الدلالة. وهنا مفترق طرق. فالفقهاء اعتمدوا علي الزي التاريخي لامرأة جزيرة العرب في لحظة التكوين هذه، وتمَّ مَلْءُ فراغات النصوص هذه بأقوال وآثارٍ مَرْوِيَّةٍ عن هذا الزي وأخرى عن سلوك النساء المسلمات من زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة بعد نزول هذه الآيات.

إذن مقابلَ الموقفِ الفقهي السائد التقليدي، والذي يُعبِّر عن حُكم تلك الآيات والتي لا تقدِّم أي دلالةٍ فقهية بالوجوب والإلزام بالحجاب، وانطلاقا من آراءٍ صادمة للخطاب الديني وهى أصوات قليلة دَأَبَتْ على مخالفة السائد والتي جهرت بمثل هذه القراءة كجمال البنَّا" الإصلاحي في مجال الفقه الإسلامي، إذ أنكر أنَّ للحجاب حكما صريحا بالوجوب في القرآن، والدكتور "حسن الترابي" والذي تُمثِّل مواقفه قطيعةً مع السائد والمألوف و"فيتو" القراءة التقليدية للدين، مع أنها تحمل ثِقلا كبيرا في المخيال الديني الكلاسيكي، إلاّ أنَّ القراءة التاريخية الجديدةَ كفيلةٌ بمنح الحجاب مَسارا مختلفا ومعنًى جديداً يتعلق بمعنى السَّتر لا أكثر ولا أقل.

فالدين الإسلامي لا ينادي بالمدلول الحرفي اللغوي لكلمة حجاب وليس كل ستر بمعنى الحجاب في أصل اللغة فقد وصف القرآن غروب الشمس "حتى توارت بالحجاب" في سورة ص الآية32. ويعني هذا الفصل التام بينه وبين الرائي .وعليه فإنّ استخدام كلمةِ حجاب بمعنى ستر المرأة، هو استخدامٌ جديدٌ نسبيا. ومن الأفضل أن تُستبدَل بكلمة السّتر كما لا يُظَنُّ أنّ الإسلامَ أراد أن تبقى المرأةُ خلف حائل وتُحبَسَ في دارها ولا تخرج منها".[16]

وهناك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تخصّ مسألة وجوب الستر وتتعلق بحدود عورة المرأة، أما كيفية التحجب فهي مسألة فيها خلاف بين الفقهاء، تعود بالدرجة الأولى الى تفسير قوله تعالى :"وليضربن بخُمُرِهن على جُيوبهن" "يُدْنِينَ عليهن من جلابيبهن".(سورة النور الآية31)'البعض يرى أنْ تغطي المرأةُ كلَّ جسدها (الجلباب) وهذا موقف المتمسّكين بحرفية النص ويأتي على رأسهم التيار السلفي، القائلُ بأنَّ جسدَ المرأة كلُّه عورة. والبعض يرى بجواز الوجه والكفين باعتبار الوجه ليس بموضع للفتنة، وهذا هو السائد عند حركة الإخوان المسلمين وهناك الحجاب الشعبي الذي يستر المرأةَ وِفقا للتقاليد والأعراف السائدة اجتماعيا بعيدا عن كل أشكال تنميط اللّباس." والجدل بين المسلمين المعاصرين لا يكاد يتوقف حول قضية الحجاب والسفور. كما لو كان يرمز وحده إلى الهوية الإسلامية"17 هذا باختصار عن مسألة الحجاب في الديانة الإسلامية بعيدا عن كل الاختلافات المذهبية والفقهية.

3 تمثلات الحجاب (المعاني والدلالات)

3- 1 الزيّ الشعبي (الحايك والملاية): "يلقى اللباس التقليدي مكانة مرموقة بفعل جودته الفنية ودرجة إتقانه، فهو رأس مال رمزي يندرج في نطاق الموروث الثقافي الإنساني الذي ارتبط بحياة المرأة عبر العصور وأصبح يمثل القيم الرمزية لفترات تاريخية متفاوتة في درجة الرقي والازدهار وهي منبثقة من رحم نُظمٍ اجتماعية واقتصادية مختلفة وأنساقٍ ثقافية متنوعة".[18] هناك في بلدان المغرب العربي الكبير، ما يعرف بالحجاب الشعبي التقليدي والذي يندرج تحته (الحايك، الملاية) يشمل إزاراً مكوناً من قطعتين: القطعة الأكبر تسمى الحايك والأخرى الحجاب أو العجار) ويسمي في الشرق الجزائري الملاية وهو يستر المرأة من الرأس إلى القدمين مع وضع الحجاب على الوجه، وهو من الأزياء الشعبية التقليدية في كثير من مناطق الجزائر كالعاصمة سابقا وقبائل الطوارق. وهو موجود إلى حدّ الساعة في منطقة واد ميزاب وبوسعادة. وحتى عند بعض العجائز في تونس والمغرب والجزائر العاصمة (كما تلبسه

العروس يوم زفافها في بعض المناطق) وصاحباته تنتمين لبيئات تقليدية، والبعد الديني هنا ليس إلاّ دعماً لتقاليدها.

لا يخضع ارتداء هذا الزي للاختيار الفردي، بل هو تقليد جماعي. وهو زي يتميز بالزينة الشعبية المميزة لأنماطه الفرعية بحسب البيئة. وهذا الزي يميز غالبا النساء اللاتي لم يصلن لمستويات عليا في التعليم ولا يعملن إلاّ في مهنٍ بسيطة أو يخرجن به إلى السوق أو مساعدة الأزواج في العمل أو الفلاحة. الحايك الآن في طريقه إلى الزوال مع أنه كان يمثل نوعا من المقاومة في الحقبة الاستعمارية. حيث يقول: **France Fanon** في كتابه: "سوسيولوجيا الثورة": "إنّ نماذج المجتمعات تُعرف من خلال الباس، قبل أيّ شيء آخر، سواءٌ عن طريق – الربورتاج- والمستندات المصورة أم عن طريق أفلام سينمائية. تُثبت الانتماءَ إلى مساحة ثقافية معينة. فالحجاب الذي تأتزر النساء به في العالم العربي مثلاً هو مما يراه السائح مباشرة. فمن الممكن أن يجهل الإنسان أمداً طويلاً أنّ المسلم لا يأكل لحم الخنزير أو أنّه يمتنع عن العلاقات الجنسية نهاراً مدة شهر رمضان. و لكن حجاب المرأة يبدو ثابتاً إلى حد أنّه يكفي بصورة عامة لتمييز المرأة المسلمة "[19]

لقد انسحبت فكرة الشفافية من عند "**Michel Foucault** " في كتابه (المراقبة والعقاب) " والتي تُعَدُّ فيه الشفافية شكلا من أشكال التحكم والسيطرة إلى النظرة للنساء، ممّا ساعد الحجاب على اكتساب رمزية قوية في السياق الاستعماري إذْ تحول إلى آلية مقاومة لهذه الشفافية المبتغاة، في مرحلة الاستعمار حيث كان الخطابُ الدينيُّ هو أحدَ آليات المقاومةِ المتاحة ـ في المناداة بتغطية النساء وإقصائهن عن المجال العام كشكل من أشكال حماية الملكية الخاصة من المستعمر الغريب. وهي آلية ساعدت على إرساء الاختلاف عن الآخر الغربي عبر التشبث بالملبس الذي يمنع الآخر من النظر إلى الجسد الأنثوي، وتدريجيا استقرَّ في اللاّوعي بوصفه أحد ركائز - الهوية - وبهذا تحولت هوية النساء إلى معادلٍ لهوية الأمة " كما أفضى هذا الحجاب إلى خلخلة ضمنية لفكرة الحداثة الغربية"20 لأن المرأة تحتل أرضية واسعة في الصراع بين الشرق والغرب.

كما كان الحجاب أو الملاية كانت من شروط خروج المرأة للشارع والأحياء في الستينات والسبعينيات في بعض الحواضر العربية، فهو يفصلها جنسيا كونها أنثى رمز الشرف وأصل الرغبة الجنسية لدى الرجل وكائن متحرَّش به، والرجل كونه رجلا بكل الصفات التي تدل على قدرته الجسمانية والمظهرية (الخشونة، القوة والشجاعة والشهامة. أما التقسيم حسب الفضاءات، فالمرأة في الفضاء المنزلي

وربّتُه، والرجل هو في الفضاء العمومي وسيّدُه المهيمن (الأرض، الفلاحة، ...). أما من حيث تقسيم الأدوار عمل البيت والتربية للمرأة أما الإعالة فهي للرجل. من هنا فإن الرجل كان يهيمن على الشارع ويعتبر المرأة التي تسير لوحدها موضوعا لإثبات رجولته خارج الأسرة فيتحرش بها، ويغريها بكل الطرق حسب الغريزة التي تجعل من الرجل يتوجه نحو الأنثى، لذا وحفاظا على مبدأ أخلاقيات الطريق تتحمل المرأة مسؤولية انتهاكها لمكان مهيمَن عليه من طرف الرجال لأنها تنتمي إلى الفضاء البيتي. في المقابل يُعتبر الرجل الذي يبقى في البيت طويلا مخنثا أي الشبيه بالمرأة، ويُنعت بصفات تمسُّ شرفه وهي الفحولة (الرجولة). في المخيال الجماعي (الجزائري) كما هو شائع بالعامية ملك البايلك (نسبة للتقسيم الإداري في عهد البايات) ونسحب هذا إلى المرأة التي لا تنتمي لنسبه. وتسير لوحدها في الشارع تنتمي للملك العام (بنت الشارع أو السايبة) أما ما هو داخل البيت فهو يخضع لهيمنته ووعيه (يقال أنا رب الأسرة أو داري تستر عاري).

3 -2 الحجاب التقليدي(العباءة والخمار): هذا النمط يتداخل أيضا مع سابقيه ويكون ارتداؤه في الغالب ناتجا عن ميول دينية واضحة وأكثر تركيبا تتلخص في مفهوم "الالتزام". وهو يتميز بصرامة شكل غطاء الرأس الذي ينسدل فيغطي منطقة الصدر، وتختفي منه الزينة ولا تستخدم مرتدياته مساحيق التجميل. ونظرا لأنّ هذا الحجاب هو الشكل الأشهر للزي الشرعي الملتزم، يكون عابرا للطبقات والبيئات، وإن كان يكثر بشكل ملحوظ بين نساء الطبقة (الوسطى والدنيا) وكذلك في وسط الطالبات الجامعيات المنتسبات لتيار الإخوان المسلمين وارتبط هذا النوع من الحجاب بالصحوة الإسلامية في بداية الثمانينات من القرن الماضي في مختلف الدول العربية. كما يضاف إليه الزي الحديث المحتشم مع غطاء الرأس والذي يتداخل مع سابقه فكثيرات من نساء البيئات التقليدية يتحولن إليه بفعل تحولات اجتماعية أو اقتصادية (التعليم - دخول الجامعة - العمل في مؤسسات حديثة - الحراك الاجتماعي - الانتقال لبيئة أكثر مدنية). وهذا الزي يتميز بمحافظته وبزيادة البعد الديني فيه. وأهم ملامحه المميزة أنه لا يُظهر ولا يجسد تفاصيل جسد المرأة بشكل كبير. وقد تُعرِّف المرأة التي ترتدي هذا الزي نفسَها بأنها ملتزمة دينيا، ولكن هنا الالتزام يتّسم بالاعتدال والتوفيق بين الدين والتقاليد ومتطلبات الحياة.

3 - 3 الجلبـاب والنقاب(الزي السلفي): هو الزي الذي يغطي كلّ الجسد بما فيه الوجه والكفين بثوب فضفاض وثخين موحد اللون غالبا أسود أو رمادي، ويكثر ارتداؤه لدى المتدينات من الطبقات الشعبية التي يمتزج فيها التدين السلفي بالتقاليد السعودية. ويدور حوله جدل كبير، حيث ترفضه أو تنفر منه قطاعات من المجتمع تشمل حتى بعض الملتزمين دينيا، لما يحمله من عزل للمرأة وطمس لهويتها الشخصية وصعوبة ممارستها لأية أنشطة في المجال العام. مع ايقونة من السلوكيات الأخرى (لا تسافر الا بمحرم، لا تصافح، لا تجالس الرجال، تعتبر صوت المرأة عورة، .....الخ) كما تعبر الدكتورة **رجاء بن سلامة**، فإن الحجاب أصبح دالاً على الشيء ونقيضه. أصبح الحجاب ذاته أسلوبا من أساليب مقاومة هذه الثقافة في التنشيئة الاجتماعية، فبعد الرضوخ لأشد أصناف الحجاب تزمتا، أي ذلك النوع الذي يكسو جسد المرأة من رأسها حتى أخمص القدمين ولا يستثني من ذلك حتى الوجه والكفين، في مزايدة صريحة على أحكام الشريعة التي أباحت كشفهما. وفي محاولة لطمس هوية المرأة "الفرد" لحساب الرجل "المجتمع"، بدأت تشيع تقليعات وصيغ مختلفة للحجاب، مما يعكس حالة تمرد و رفض مضمر فنسبة ارتداء هذا الصنف في تزايد مُطّرِد، هذه الحقيقة السوسيولوجية التي بِتنا نشهد تجلياتها في المدن قبل الأرياف تكشف عن ضرورة مراجعة الخطاب المُناصر للحجاب والجلباب كما تعبر عن فقدانه لأكثر مواقعه نفوذا وسيطرة. قد مضى على الفكر العربي منذ نهاية السبعينات عهد ساد فيه نقاش حاد بين مؤيدي ارتداء الحجاب ومعارضيه، واتخذ التيار السلفي من الحجاب «قضية نضالية» ودخلت في «معارك لفظية» مع التيارات العلمانية التي دافعت بدورها عن قناعاتها، وانفجرت معها نقاشات حادة بين مختلف القناعات. وظل الحجاب بشكل عام موضوعاً سائغاً للنقاش في الندوات السياسية والفكرية المختلفة. في مطلع القرن الواحد والعشرين، لم تعد الحركات الإسلامية تتخذ من الحجـــاب بمفهومه التقليدي قضيةً للنقاش في المنـــابر السياسية والإعلامية، - لكنّ النقاشَ في الحجاب لم ينته بل أخذ منحًى آخر يتعلق هذه المرة بحجاب الموضة.

3-4 حجاب الموضة (حجاب الحداثة): الحجاب جزء من منظومة ثقافية/سياسية/اجتماعية متكاملة وظيفتها الأساسية هي ضبط السلوك النسائي ومراقبته. والحجاب التقليدي يكاد يضع النساءَ في صورة واحدة لا يكاد معها تمييز بين جسد وآخر. ويَمنع من كل أشكال التعدد والتنوع والاختلاف ويعتبر بذلك

حجاب الموضة نوع من إعادة إنتاج الحجاب، جاء كبديل يجمع بين المحافظة على الهوية وما تحمله من قيم تاريخية ووطنية ودينية وبين حب التغيير كشعور طبيعي جبُل عليه الإنسان في كل زمان ومكان.

" نجد أيضا "المواقع الالكترونية " للموضة الإسلامية حيث نجد من بين تلك المواقع ما تسمي نفسها Hijabolous، Muslim Style Queen "ملكة الموضة المسلمة" أو" Fshionably Modest" (نحب الحجاب)، و" Hijab Style". علاوة على توفير حاجيات البيع عبر الانترنت (الحجاب أون لاين)." لا يكتفي مصممو الأزياء بابتكار خطوط جديدة لأزياء عميلاتهن المتزايدات من الطبقة الوسطى والطبقات الراقية، بل نجدهم الآن يشاركون بنشاط في صناعة الموضة العامية من خلال تنظيم عروض للأزياء التي يبتكرونها خصيصا للمسلمات المحجبات."[21] " أصبحت تلك الأزياء المستمَدة من التقاليد المحلية بعد تحديثها، والانتقاء المتقَن من الخامات العالمية وإضفاء نكهة خاصة عليها من خلال عبقرية المصممين الجمالية، أصبحت سائدة في كثير من المجتمعات ذات الغالبية المسلمة، كما **انها تلقى إقبالا بخاصة المغتربات في أوربا،** كما تزايد الطلب عيها من نساء الطبقات العليا اللاتي يعشن بالداخل أو في الخارج."[22]

يرجع نجاح تلك الأزياء في قدرتها على استثارة مشاعر الحنين **وإقامة صِلاتٍ رمزية مع الهوية،** فيما تتبع بقوة الموضات الجديدة، بحيث تستطيع أن تمثل الزيّ الإسلامي المناسب مع الإيحاءات بالموضة.

أصبح للمحجبة على الموضة مجلات تسمى - مجلات أسلوب الحياة الاسلامي – والتي ترسم صورة للأنثى المسلمة التي ابتكرها مصممو الموضة، أي المرأة المسلمة المتدينة الجذابة المخلصة لدينها ولخلفيتها الاجتماعية والثقافية. يجري التبشير بتلك الشخصية للمرأة المسلمة والترحيب بها بصفتها المسلمة النموذجية التي يمكن لقارئات المجلة الوصول إلى الصورة التي تمثلها، وابتياع أزيائها، ومعها اكسسواراتها، وأسلوب حياتها."[23]

صناعة الأزياء الإسلامية الموضة التي لا تتناقض مع التدين الحق، تسعى إلى خلق صورة ذهنية لتمسكها الصارم بالتفسيرات المحافظة للإسلام، فنجد بعضها لا ينشر المقالات سوى لكاتبات مسلمات فقط، فيما لا تُظهر أخرى سوى الملابس التي تصممها نساء مسلمات أو تعرضها (عارضات أزياء) مسلمات فيما تعطي أخريات أولويات الإعلانات للإكسسوارات التي يبيحها الاسلام مثل "مكياج حلال" (**مجلة نور**)

أيضا يحاول القائمون على تلك المجلات، تخصيص مساحات على صفحاتها، ليس فقط لأعمدة الإرشاد الاسلامي، بل أيضا لكتابة قصص عن نساء مسلمات حقّقْن نجاحا باهرا أوعن عارضات أزياء شهيرات وأخريات مرموقات أصبحن ملتزمات، وتقديمهن للقارئات كنماذج يُحتذى بها من خلال إلقاء الضوء على إنجازاتهن وخلفياتهن العائلية ومكانتهن الاجتماعية والوظيفية، وذلك لتوضيح أنه بإمكان المسلمات أن يجمعن بين الحجاب والنجاح المهني ويتبعن آخر صيحات الموضة، أي أن الموضة، وخلافا لما قد يعتقده البعض، ليست بالضرورة غير متسقة مع تعاليم الإسلام الجوهرية ولا تمثل تهديدا لسمعة النساء المسلمات.

4 ـ فعل التحجب (بين النسق والدلالات الرمزية)

4-1 نسق فعل التحجب: كانت الأزياء التقليدية في المجتمعات المسلمة مزيجا من نسق "التحجب" العربي الذي تمّ تصديره مع امتداد الدولة الإسلامية، ومن ثمة تصديره مع حركة الهجرة الى أوربا وأمريكا، متداخلا مع نواتج البيئة الثقافية المحلية. حاملا معه ما يشكل نظام (الحرمة) – والذي يتم تبريره بالتقاليد والدين - نموذجا معبرا عن نسق التحجب التقليدي.

قد تنوعت دلالات ومعانى الحجاب، حيث يستمد الزي شرعيته من كونه تقليدا جماعيا غير فردى وقد أعيدت بلورة "نسق التحجب" مرة أخرى في العصر الحديث بسبب بدء عملية تحديث كل المجتمعات العربية وبداية انحسار الأزياء التقليدية في المدن لتخلف فراغا تملؤه الأزياء الغربية. فأحيانا تتلاقى إحدى دلالات الزي التقليدي مع دلالات الأشكال المعاصرة من "الحجاب"، ولكنّ الفارق بينهما يتمثل في ثنائية التقليد / الحداثة.

الزي التقليدي يعكس التدين، كما أنه يحتفظ بهامش واسع للتسامح مع التفاصيل والتنوع بعيدا عن الضوابط الموحدة. بينما تعكس الأشكال المعاصرة للفكر وللدين كأيديولوجيا صارمة تستدعى سلطةً كبرى مركزية ومتحكمة ومتجذرة في الفعل اليومي وتستدعى هوية كبرى جامعة عابرة للتكوينات الصغيرة. ففي مقابل تنوع الأزياء التقليدية بحسب البيئة والمكان، نجد وحدة ونمطية أشكال "الحجاب" الملتزم: الخمار والأسدال. بجانب الزي التقليدي في تعامله مع جسد المرأة رغم ستره للجسد، نجد صرامة "الحجاب" في الطمس الكامل لكل معالم أنوثة الجسد. فالزي التقليدي يشير إلى هوية فرعية مميزة في القرية أو القبيلة أو ربما الحي الشعبي . بينما يشير "الخمار" للهوية الدينية الجامعة. ولهذا ربما يتعرض الحجاب الشعبي التقليدي أحيانا للنقد من قبل الخطاب الإسلامي الذي لا يراه إلا

استمرارا لتقاليد محلية - ليست بالضرورة متصالحة مع الهوية الإسلامية - بينما الحجاب الذي تتخذه الفتاة بقرار فردي شخصي وعن قناعة دينية يعبر عن اتجاه حضاري ثقافي يختلف عن العادات المحلية والتقاليد، ويقف في مواجهة الحداثة الغربية وتحدياتها الثقافية.

4- 2 رمزية الحجاب: يؤكد - Pierre Bourdieu - " على وجود حقول لا يمكن تحليل الواقع ولا يتم إدراك المفاهيم إلا من خلالها، وهذا يعبر على أنّ للمفاهيم صفةً إجرائية، بمعنى أنها لا تحمل مضمونها وتكتسب معناها إلّا في إطار استخدامها في الواقع وفي إطار عام للعلاقات، فلا يمكن تحليل الواقع."[24] ويأتي **الحقل الديني** ليشمل الظواهر، الطقوس والعبادات والمعتقدات والأساطير والخرافات، والميثولوجيا والمذاهب والفلسفات الدينية وعلاقات القرابة.[25]

يتكون الحقل من جملة من العناصر المتشابكة، هي عبارة عن مواقع وسلطات أو مواقف وخيارات أو مصالح واستراتيجيات أو رهانات واستثمارات. هذه العناصر تدخل في تركيب الحقل على نحوٍ يجعل منه – بنية تفاضلية – تعمل بحسب مبدأ أساسي يقوم على توزيع أنماط السلطة وأنواع **رأس المال** الفاعلة في الفضاء الاجتماعي والتي تتغير تشكيلتها بحسب الظروف والأمكنة.

رؤوس الأموال هي على نوعين كبيرين: رؤوس مال رمزية كالمعتقدات والمنتوجات الثقافية والألقاب العلمية. ومادية كالأموال والموارد الطبيعية والسلع الاستهلاكية والمنتجات التقنية. والسلطات هي كذلك على نوعين: مادية كمؤسسات الدولة من شرطة وجيش وقضاء. ورمزية تتمثل في السلطات الثقافية من دينية وخلقية وأدبية. **الأولى** تمارس العنف الفيزيائي بأجهزتها الأمنية فيما تمارس **الثانية** العنف الرمزي بأجهزتها الإيديولوجية (المرجعيات الدينية). الأمر الذي يجعلنا أمام نوعين من الشرطة شرطة أمنية تقوم بحراسة الأجساد والممتلكات وشرطة فكرية تقوم بحراسة القيم والمعتقدات."[26]

سيسيولوجياً يذهب التعريف الى القول أن – **الرمز-** هو شيء ما يحتل مكان شيء آخر أو أنّه شيء ما يحُلُّ مَحل شيء آخر ويستدعي قيمته أو معناه ممن يستخدمونه." وتؤدي الرموز وظيفتين، الأولى هي وظيفة الاتصال، والثانية هي وظيفة المشاركة وهما يتساندان في أوجه الفعل الاجتماعي فرمزية الاتصال تسيِّر المشاركة وتساعد عليها ورمزية المشاركة تقيم أنماطا عدة من الاتصال أيضا".

للرموز وظيفةٌ أخرى تتعلق بالمشاركة حيث أنها تستخدَم بصور فعّالة في تحسين الحقائق المجردة العقلية أو الأخلاقية في المجتمع وتجعلها مرئية وملموسة. وهى بهذا تسهم في التذكير والمحافظة على مشاعر الانتماء وبالتالي تحافظ على بقاء هوية الجماعة واستمرارها فالرموز تدفع إلى التضامن وتؤكد على الانتماء ويكتسب الفرد هذه الأفكار وأساليب السلوك الشائعة والمعروفة عن طريق التنشئة والتفاعل الاجتماعي وتربط الحاضر بالماضي لذلك يعتبر التفاعل الرمزي مادة تشكيل لبِّ الشخصية والهوية والتي بدونها لا يمكن إقامة التواصل مع الأخرين

" يعتبر الحجاب كعلامة عن ايديولوجيا متكاملة تتعلق في النظرة لهذا الجسد وعلاقته بالجسد الأخر وعلاقتها بمنظومة أخلاقية معيارية تقوم على تشييء جسد المرأة."

كما تقوم هذه المنظومة الأخلاقية على تبريء الرجل وتجعل من المرأة فاتنة ومفتونة. وعلى المجتمع أن يتخذ التدابير الوقائية للحيلولة دون هذه الفتنة والتي لا تتأكد سواء بإشهار عفتها بالحجاب"[27]

5- دلالات ومعاني الحجاب: " إن للحجاب قيمةً رمزية كبيرةَ الأهمية تدل على الهوية الاجتماعية لحاملاته، إذ مهما تكن الدرجة التي تلعبها ذاتية الواحدة منهن في اختيار الحجاب المناسب لها بحسب ذوقها الشخصي، فإنه يحدد إلى درجة كبيرة الفئة الاجتماعية والمجال الذي تنتمي إليه، كما يعتبر مؤشرا على تمثل للتوجهات المعرفية والدينية والحضارية التي ترتسم في المجتمع، والهادفة إلى تثبيت شخصية اجتماعية محددة " وهناك مجموعة من الدلالات والمعاني للحجاب نذكر منها:

5-1 دلالات الحماية والصيانة(السلطة الذكورية): وهي دلالة جندرية معبّرة عن الرغبة في رسم الحدود بين الجنسين بعد "التشويش" الذي حل بها. فيغدو الحجاب محددا جندريا يحول دون 'تشبّه النساء بالرجال والرجال بالنساء' وانتشار 'الفوضى واللبس' في الفضاء العمومي.

وهذه الدلالات الجنسانية ترتبط بوضع الجسد الأنثوي المسيّج داخل ثنائية الحجب/العرى في مجتمعات إباحية لا تعترف بمفهوم الستر.... فتحاول تجريد هذا الجسد من الحجاب.

والحجاب على جانب آخر وخاصة مع انتشار القنوات الفضائية وتنوعها. له دلالات ترتبط بـ"خطاب الحجاب" ، وبتقديمه على أنه حماية وصيانة للمرأة. ويتلخص هذا الخطاب في شعارات من نوع "الحجاب طاعة لربك.. صيانة لنفسك" أو "الحجاب.. يحميك من الذئاب"، وهى شعارات تضمنتها أكثر الشعارات انتشارا. وتصدر من المنابر وعبر القنوات الفضائية ومسارات الانترنت المختلفة.

ففكرة الحماية والصيانة تشير في وضوح لأفكار "نسق التحجب": التملك والسيطرة على حد تعبير – **Pierre Bourdieu** - والدخول في حرم الرجل ومسئولية المرأة عن أي تهديد للشرف. فهذه الحماية والصيانة تعنى في المقابل أن غير المحجبة معرضة لخطر الذئاب، وأن إبداء المرأة بعض زينتها هو مبرر كاف للذئاب لانتهاكها.

هذا تبرير ولو نسبي لفكرة التحرش بالمرأة غير المحجبة وفق معيار اجتماعي معين. يَلقى هذا الخطاب رواجا في المناطق العشوائية والشعبية التي تقلُّ فيها سيطرة الأمن ولا تهتم فيها الشرطة بأمن الأفراد. أو غياب الشرطة والذي يجعل مسؤولية تحقيق الأمن ملقاةً على عاتق الأفراد. ولا قدرة لهؤلاء الأفراد على مواجهة المنحرفين. وكذلك المتحرشون يصيرون أمرا طبيعيا ويصبح على عاتق الفتاة حماية نفسها منهم. وهنا يصبح الحجاب أو الزي المحافظ ضرورة للفتاة لتجنب التحرشات والمضايقات، خاصة إذا ما كانت تخرج للدراسة أو العمل. أما المتحرشون فكثير منهم يسكنهم هذا الخطاب وكأنما يرون المرأة المتزينة تدعوهم للتحرش بها أو أنها على الأقل المسئولة عن ذلك لأنها "غير محترمة".

فالحجاب يعلن على أن هذه المرأة محافظة فلا تُحرَم من الوجود الاجتماعي والمشاركة والفاعلية ولا يجعلها تتوجس من الاختلاط بالجنس الآخر. بل إن البعض يرى أن هذا يسهل مهمتها. وهكذا يعتبر الحجاب أحيانا نوعا من الصفقة بين المرأة وبين المجتمع وقيمه، تكون فيه المرأة محافِظة في جانب، مقابل تقدمها أو تحررها في جوانب عدة (الدراسة، العمل النشاط الاجتماعي).

2-5 **دلالات التدين الجماعاتي**: وهي دلالة أيديولوجية سياسية فالحجاب وسيلة للتمييز بين المنتمي إلى تيار إسلامي وغير المنتمي، وبين أتباع هذا الاتجاه وذاك (انظر مثلا لباس "الجلباب لسلفيات وعباءات والخمار للأخوانيات)، تبرز الأبحاث الأنثروبولوجية طبيعة تقديس الفردي داخل "العشيرة" أو القبيلة لتقديس مماثل في الميدان السياسي والديني. فزعيم العشيرة هو نقطة الوصل بين أفرادها ومجتمع الأجداد، ومن ثَم، يتداخل كل من المقدَّس والسياسي. ويصبح المقدسُ هو أحدَ أهمِّ أبعاد النشاط السياسي. وحسب "Emile Durkheim " فإن علاقة السلطة السياسية بالمجتمع تشابه العلاقة القائمة بين الطوطم (إله القبيلة) والعشيرة، وهذه العلاقة هي بشكل جوهري مضمنة بالقدسية.

من ثَم تكمن أهميتها في إمكانية توظيفها سياسيًّا وأيديولوجيًّا. والمرجعية الدينية في الخطاب الإسلامي مرجعياتُ متعددة الإخوانية والسلفية والصوفية

والشيعية... إلخ وفي حال اختيار واحدة من هؤلاء، فما هو موقفها من باقي المرجعيات الأخرى؟؟ فالدين بمعنى المرجعية يكرس كل أنواع العبادات والطقوس وحتى الأساطير في نزاعاتها مع خصومها في سبيل تثبيت شرعيتها وضمان استمرار وجودها.

لقد جرى تحول بالغ الأهمية مع الصحوة الإسلامية في عقد السبعينيات انتقلت معه الحركة الإسلامية في قضية لباس المرأة من خطاب يرفض العري والابتذال الذي يخرج عن قيم الستر والاحتشام التي عرفها المجتمع "المسلم" إلى خطاب آخر مختلف يسعى إلى تحديد الحجاب كلباس "شرعي" وحيد للمرأة يُفترض أنْ تتجسدَ فيه كلُّ القيم العليا التي يدعو الإسلام المرأة إلى الالتزام بها، وهو تحوُّلٌ جاء ضمن سعي "ايديولوجي" أوسع لبناء مجتمع الدولة الاسلامية.

طوال عقديْ السبعينيات جرى ما أسميه بـ "أيقنة" الحجاب كشكل محدد للباس الشرعي للمرأة؛ أي تحويل الحجاب إلى أيقونة ترمز لمجموعة من القيم والأخلاق وتكـــاد تجسدهـــا حصريا فضلا عن اختصاره لكل قضايا المرأة المسلمة التي تبدأ ولا تنتهي إلاّ به.

لقد جرى الربط الشرطي والآلي بين ارتداء الحجاب وبين الأخلاق، بحيث صار الحجابُ علامةً وحيدة وحصرية على الأخلاق التي يُفترض أنها تغيب بغيابه وتحضر بحضوره.. فصُكت شعارات مثل: حجابكِ أخلاقكِ، حجابك عفّتُكِ، الحجاب فريضة كالصلاة، الحجاب قبل الحساب، الحجاب عفة طهارة نقاء، الحجاب عنوان حيائك.. وكان الربط الآلي والشرطي بين شكل معين للباس وبين معاني الحياء والعفة والطهارة والنقاء جزءًا من سمة الاختزال والتسطيح التي غلبت على الخطاب الإسلامي الحركي ذي النفس الأيديولوجي الذي ساد حقبة السبعينيات والثمانينيات.

عندما ننتقل لدلالات الحجاب "الملتزم"، الخمار والأسدال وما شابههما. فالالتزام هنا يجعل الزيَّ أكثرَ صرامةً في حَجْبِ المعالم الأنثوية، وفى الإحالة لمفاهيم مرتبطة مثل رفض الاختلاط تماما والاعتماد على شكل تقليدي في الزواج. هذا النمط هو المُفضَّل لنساء الحركات الإسلامية الوسطية نسبيا مثل الإخوان.

بينما يمثل الجلباب والحجاب الزي المفضل لنساء الحركات الإسلامية الراديكالية (التيار السلفي) فالأول يبدو معتدلا وأكثرَ قبولا من الحجاب كما أنه يسهل قيام المرأة بأنشطة دعوية وغيرها ويسهِّل توسيعَ دائرة علاقاتها الاجتماعية أكثر من الحجاب. ولكنَّ مرتديات هذا الزي لا ينتمين بالضرورة لأيِّ حركات. وكما أن ارتداء هذا الزيَّ يمكنُ أنْ يُعبِّر عن اتجاه الأهل أو الزوج ثم تبعية المرأة (كمشاهدة شاب ملتحى يرتدي القميص وترافقه زوجة ترتدي الجلباب والنقاب).

فالمرتديات الحجاب 'المُسيّس' المصحوب بالزي الشرعي «الإسلامي" الفضفاض يحرصن على طمس معالم الأنوثة لديهن ويجاهدن في سبيل تحويل أجسادهن إلى مجرد كتل "لحمية" عديمة الشكل بريئة من الفتنة. فيكون سلوكهن معبّرا عن مقت لهذا الجسد الأنثوي من جهة ودخلنا في الخطاب التأثيمي الذي لا يرى في المرأة إلاّ جسدا يستهدف القضاء على الرجال كيدا وإغراء وفتنة.

3-5 دلالات تأكيد الهوية الثقافية: تمثل دلالة سوسيوثقافة تكشف عن الحراك الاجتماعي وتومئ إلى تغيير أصاب مختلف الأنساق والبنى. فالثقافة المهدّدة صارت اليوم تبحث عن وسائل مقاومة متعددة لتواجه بها 'أعداء الإسلام' منها الحجاب الفاصل بين مقوّمات هويتنا وهويتهم، ديننا ودينهم، أخلاقنا وأخلاقهم، نساءنا ونساءهم إلى غير ذلك من الثنائيات المتضادة الموضّحة لعلاقة الأنا بالآخر.

يثير نمط الحجاب المحتشم الأنيق أحيانا انتقادات وتحفظات بعض الدعاة السلفيين باعتباره يمثل خروجا عن روح التشريع، التي يهدف لحجب الجمال والأنوثة. بينما الانتقادات الأشد والأعنف تَنْصَبُّ على نمط الزيِّ المتحرر نسبيا مع غطاء رأس (حجاب الموضة). باعتباره عند البعض "تبرجا" يتمسح في الزي الشرعي بإضافة غطاء على الشعر. هذا النمط من "الحجاب" هو الأكثر إشكالية والأغنى دلالات. فهو نمط من الاستجابة لضغط خطاب الحجاب أو "نسق الحجاب" السائد، عن طريق مجاراته والتمسح به. واستجابة لضغط حركات الموضة والتحديث. كما أن الموضة وظيفتها الإبقاء على أنوثة المرأة وذلك ما تسعى إليه الإناث كما أن الموضة تحقق الرغبة في تحقيق الذات والتميز كفرد في الجماعة، والرجال أقلُّ ميلا في هذا المجال من النساء، فللنساء رغبةٌ دائمةٌ في التغيير "[28]

كما أن تقدير الذات هو إدراك الفرد لنفسه ورغبته في التعبير عنها من خلال الملابس التي توضح وتؤكد اتجاهاته وقيمه وسلوكه التي تؤكد وتحدد شخصيته وتميزه عن الآخرين ومحاولا في ذلك تحقيق التكيف النفسي الاجتماعي عن طريق ملاءمة الملابس للفرد والنشاط الذي يمارسه، وتحقيق الراحة الجسمية والنفسية والاعتماد على نفسه في اختيار احتياجاته من الملابس".[29] هذا النمط أيضا يفارق "نسق الحجب" في أكثر من مظهر، فكثير من مرتدياته لا يتحرجن من الاختلاط بالرجال أو إقامة علاقات زمالة وصداقة. أكثر تحررا من "المحجبات". هذا النمط إذن يحمل في طياته نزعات التوفيق والتهجين كما يحمل نزعة شكلانية وميلا لتحويل الجانب الديني إلى مجموعة من الأيقونات والطقوس المريحة والمُرضية للذات وللمجتمع. وهذه

النزعات المرتبطة بهذا الزي تعكس سمات مميزة للتدين الشعبي المعاصر سواء للنساء أو حتى للرجال الذين يؤمنون بالاعتدال في التدين والابتعاد عن التشدد والتطرف.

المتحجبات على الموضة يحرصن على الظهور كمسلمات ملتزمات بالقيم الدينية ويتبعن الموضة في آن واحد. وأيضا نجد من يدعوهن (محجبات المكياج) في إشارة أنّ المحجبة بإمكانها ان تستخدم المكياج مثل غيرها من غير المسلمات ومن غير المحجبات. أيضا بإمكان المحجبات اشتراء حجابهن كل قطعة على حدة وتنسق بين البلوزات وما يتناسب معها من ربطات للخمار، أو يذهبن إلى محلات أخرى تعرض مجموعات منسقة من الأزياء بما فيها الاكسسوارات.

6 ـ خاتمة

فرض الحجاب تقوم به أنظمة ذات طبيعة دينية مثل المملكة العربية السعودية وإيران: عُرْفًا عن طريق جماعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر في السعودية، أو عن طريق قانون مكتوب كما في إيران. وعلى الجانب الآخر نجد سياسات تحظر الحجاب تحت دعاوى "علمانية" مثل الحالة الفرنسية التى اعتبرت الحجاب علامة دينية يَحظر ارتداؤها في المدارس حمايةً لعلمانية الدولة، كما تعتبر الحكومة التونسية الحجاب "زيا طائفيا" ومناقضا لتقدم المرأة التونسية ولعلمانية الدولة، وتركيا تحمي مؤسساتها القيمَ العلمانية وتحظر ارتداء الحجاب في المؤسسات العامة باعتباره زيا دينيا. على المحور الأول يواجه فرض الحجاب بخطاب الحريات والديمقراطية والمطالبة بعلمانية الدولة والتنديد بِتَبَنِّي الدولة مذهبا دينيا محددا وحَمْلِ الناس عليه. وعلى المحور الثاني يواجه حظرُ الحجاب أو التمييز ضده بخطاب الحريات والديمقراطية - أيضا - والتنديد بالعلمانية السلطوية التي تنتهك الحرية الدينية للأفراد.

الهوامش

1. سحر عامر، الحجاب: الأصول- التنوعات- التداعيات، تر: فاطمة نصر، مرجع سابق، ص17
2. طه جمانة، المرأة العربية في منظور الدين والواقع ، ط1، منشورات اتحاد الكتاب ، دمشق، 2004، ص69
3. عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، لبنان ،1967، ص65
4. سحر عامر، الحجاب: الأصول- التنوعات- التداعيات، تر: فاطمة نصر، مرجع سابق، ص19
5. سحر عامر، نفس المرجع، ص57 - عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص 57
6. زكي علي السيد أبو غضة، المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، ط1، دار الوفاء، 2003، ص244
7. طه جمانة ، المرأة العربية في منظور الدين والواقع ، مرجع سابق، ص69
8. طه جمانة ، نفس المرجع، ص70
9. طه جمانة ، مرجع سابق، ص70
10. طه جمانة ، مرجع سابق ، ص71
11. سحر عامر، نفس المرجع، ص 20
12. عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص59
13. طه جمانة ، المرأة العربية في منظور الدين والواقع ، مرجع سابق، ص94
14. قاسم أمين، تحرير المرأة والمرأة الجديدة، المركز العربي للبحث والنشر، مصر، 1984 ، ص78
15. مرتضى ألمطهري، مسألة الحجاب، مرجع سابق، ص 60
16. مرتضى ألمطهري، مسألة الحجاب، مرجع سابق، ص 60
17. إقبال بركة ، الحجاب رؤية عصرية ، ط1 ، دار كيوان ، سورية ، 2003، ص 11
18. عبد الحميد بورايو ، ط2 ، تطور ملابس المرأة الجزائرية، دار أنوثة للنشر ، الجزائر ، 2007، ص11
19. فرانس فانون ، سيسيولوجيا ثورة ، ترجمة ذوقان قرقوط ، دار الطليعة ، ط1، 1970
20. شيرين أبوالنجا : الحجاب بين المحلي والعولمي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1 ، 2008 ، ص43، 44
21. سحر عامر، مرجع سابق، ص 229
22. سحر عامر، نفس المرجع ، ص 225
23. سحر عامر، مرجع سابق، ص 232.
24. عبد الغنى عماد، سوسيولوجيا الثقافة ، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2008، ط2، ص99
25. عبد الغنى عماد ، سوسيولوجيا الثقافة، مرجع سابق، 2008، ص99
26. عبد الغنى عماد، سوسيولوجيا الثقافة، مرجع سابق، ص101. بتصرف
27. عايدة الجوهري، رمزية الحجاب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط1 ،2007 ، ص185
28. عايدة الجوهري ، مرجع سابق، ص202
29. عليه عابدين، دراسات في سيكولوجية الملابس ، دار المسيرة ، عمان ، ط1 ، 2008، ص195-196